

لغو الصيف

للدكتور طه حسين

من هنا يا آنسة؟ من هنا؟ ثم أشار الى مائدة منعزلة كأنما هيئت لقوم يريدون الخلوة واعتزال الناس. فلما انتهى اليها أعجبها مكانها الجميل على شاطئ النيل في ظل هذه الشجرة الضخمة الباسقة، قد مدت أغصانها في قوة الى أمام، حتى إذا تجاوزت بها الشاطئ. حنتها نحو الماء، وغمستها فيه كأنما تريد أن ترتشف منه، ونظر الصديقان من حولها فلم يريا أحدا، ومد الصديقان بصرهما أمامهما وأطالا النظر الى النيل وهو يجري من تحت أقدامهما في قوة الشاب وهدوء الحكيم، ثم جلسا، وقال الرجل لصاحبه: هنا يحسن الحديث، قالت: ويحسن الصمت أيضاً. وقد ظهرت على وجه صاحبها علامتهم تدل على أنه لم يفهم عنها ما أرادت اليه، وأحست هي منه السؤال الذي لم ينطق به. فقالت وكانها تجيب: ان تحدثنا تساقينا موسيقى الحوار، وإن سكنتا تساقينا نجوى الضمائر ووحى القلوب. وأنا في كلنا الحالين لذة، ولنا في كلنا الحالين متاع، فخذ أيهما شئت. قال فأيهما تريدان؟ قالت لا أريد شيئاً إلا أن تترك أنفسنا على سجيتهما. فان انطلقت ألسنتنا سممتها آذاننا، وإن آثرت نفوسنا الحديث الصامت وعته قلوبنا. قال وهو يضحك: أيسر من هذا كله وادنى الى التناول أن تساقى ما يبرد الغليل، ويرد عنا حر هذا القيظ، ثم دق يدا بيد في شيء من الرفق، فاقبل الخادم وتلقى عنه أمره وانصرف.

وكان هو طويلاً نحيفاً، ظاهر النشاط، خفيف الحركة، مكتمل القوة، لا يظهر عليه ما يدل على سنه إلا خيوط بيض متفرقة قد أنتثر في شعر رأسه إنتثاراً. وكان عذب الصوت، حازم اللهجة، معتدل الحديث، ولعله كان الى الإبطاء فيه واصطناع الاناة أدنى منه الى الاسراع والتعجل، وكان صوته يمتد من حين الى حين، لا غضباً ولا تحمساً، ولكنه كان مقتنعاً بما يقول، فكانت حدة صوته ولينه يمشلان حظه من الايمان والاعتناق بما يقول.

وكانت هي ربة، ممتلئة الجسم، مستقيمة القد، معتدلة القامة، وكان وجهها مشرقاً شديد الاشراف، منسقا بديع التنسيق، تمر به من حين الى حين سحابة رقيقة جداً، من حزن لا يكاد يتبينها إلا

من اعتاد أن يلقاها ويطلق صحتها والتحدث اليها، وكانت هذه السحابة الطارئة لا تمر بها وهي تتحدث، إلا قطعت عليها الحديث فجأة، ثم لا تلبث أن تزول فيتصل الحديث، ولا تمر بها وهي تسمع إلا لفت عن محدثها لحظة ثم تزول، وإذا هي ترفع الى محدثها طرفاً فيه شيء كثير جداً من الحياء والاشفاق، وتستعيده ما قال في صوت عذب، ولفظ حلو، يحسن مسه للآذان ووقعه في القلوب. وكان صوتها هادئاً عريضاً يمثل نفساً هادئة غنية ممتلئة بالعواطف الخصبية والشعور الحى والعلم الغزير.

وكان الفرصة أرادت أن ترضى حاجتها الى الصمت، وحاجة صديقها الى الكلام، فقد أقاما صامتتين لحظة غير قصيرة ينظران الى سعى النهر امامهما، كأنهما ينتظران شيئاً، وكأنهما يلهوآن بالنهر وسعيه الهادى القوى عما يضطرب في نفوسهما من الخواطر والآراء، ومن العواطف والاهواء، حتى إذا أقبل الخادم فهياً المائدة وصف أكوابه وأطباقه، وانصرف راضياً عن نفسه مبتسماً لصيفيه، نظرت هي الى صاحبها كأنها تسأله أن يبدأ الحديث فقال: وقد فهم عنها ما كانت تريد، لسنا في حاجة الى أن نبتدي الحديث، وما علينا إلا ان نأخذه حيث تركناه حين انتهينا الى هذا المكان الهادى الجميل. قالت فان هدوء هذا المكان وجماله قد انسياني حدة ما كما فيه من حوار، واضطراب ما كنا نتبادل من رأى. فلننظر القضية من أولها. فلعل هذا الهواء الطلق وهذا المنظر الحلو، وهذا السكون الساكن، أن تكون قد ردتك الى شيء من الصواب وصدتك عما كنت فيه من جوح. فما أرى إلا أنك تظلم الأدب والآداب جميعاً، وتقسط على الشباب والشيب. وكما أحب لك أن تكون سمح النفس، رضى الطبع، مستعداً لشيء من التجاوز، تعذر طيش الشباب، وترفق بحدة الشيوخ. قال فاحب ان أدلم اين الشباب واين الشيب، ومتى يكون الأديب شاباً، ومتى يكون الأديب شيخاً. فهذا حديث طريف لم أسمع به في مصر قبل هذه الأيام، ولقد رأيت الآداب منذ عرفت الأدب ينشئون اثر ويرضون الشعر على اختلاف اسنانهم وتفاوت حظوظهم من القوة والضعف، فلا يختصمون في شباب ولا شيخوخة، وإنما يختصمون في الرأى ويختصمون في الفن، يعين بعضهم بعضاً، ويدافع بعضهم بعضاً، لا يعترف الشيخ على الشاب بتجاربه وكثرة ما اتيه من الآثار ولا يعترف الشاب على الشيخ بجدائته وقوته، ونضرة شبابه، واتساع الايام امامه، وانبساط الآمال له. قالت لم تر ذلك من قبل ولكنك قد رأيته الآن: فأى غناء في أن تنكر

شيئاً حدث الآن لأنه لم يحدث من قبل، وأى فرق بينك وبين عامة الناس الذين يضيقون بالجديد، لا لشيء إلا لأنهم لم يألوه ولم يطاولوا عشرته

إن في الشباب نزوعاً إلى الفوز، وطموحاً إلى الظفر، وتعجلاً لاتساع الشهرة وبعد الصوت، وكل هذا طبعي، وكل هذا مألوف لأنه يلائم فطرة الشباب وأخلاقيهم، فلا تنكره عليهم، ولا تنصرفهم عنه، فإني أخشى أن يفقد ذلك في أعضادهم، وأن يضمف من نشاطهم، وأن يرد جذوتهم هذه الجميلة إلى الخود. قال لقد كنا شباناً كما كانوا، وكان لنا من رفاقنا في الأدب أساتذة قد سبقونا إلى الحياة وتقدمت بهم علينا السن، واخذوا من الجارب العلمية والفنية بحظوظ لم نأخذ بمثلها، فما حسدناهم ولا انكرناهم، ولا جامدناهم ولا قصدنا إلى المكر بهم والكيد لهم، وإنما كنا نفقو آثارهم ونسمع لنصائحهم ونستعذب أحاديثهم، ولما كنا نحس ما بينهم وبيننا من خلاف، فلم يكن ذلك يغرينا بهم، ولا يصرفنا عنهم، وإنك لتذكرين كم كنا نستعذب أحاديث حفي ناصف، وكم كنا نحصر على أن نروى عنه كل ما كان يحدثنا به من هزل القزل وجده. وإنك لتذكرين أنا كنا ننصرف عنه بعد الجلسة الطويلة معجبين به محبين له، ثم لا نثبت أن نستعيد ما سمعنا منه فننكر بعضه، نعرف بعضه الآخر، ولا يمتنعنا ذلك من أن نتمجّل عودته إلى القاهرة آخر الأسبوع لنتلقاه فنسمع منه ونحدث إليه. وما خطر لك ولا خطري ولا خطر لواحد من أصحابنا أن ينكر حفي ناصف لأنه كان شيخاً. ولأننا كنا من الشبان، أو يلوم حفي ناصف، لأنه سبقنا إلى الحياة والانتاج، فسبقنا إلى الشهرة وبعد الصوت، إنما كنا نستعينه على أن نكون خيراً منه، وكان يعيننا على ذلك راضياً به مبتسماً له راغباً فيه. قالت: فإني أحب لكم بمشور الشيوخ أن تكونوا كحفي ناصف وأمثاله من أساتذتكم، لا تضيقون بأبنائكم أن ثاروا أو تمردوا أولعبت برءوسهم نزوات الشباب. هنا قال صاحبها في شيء من الغضب الضاحك: ومن زعم لك أنني شيخ، هذا شيء لا أقره ولا أرضاه. قالت وهي مفرقة في الضحك، وما يعينني أن تقره أو لا تقره، وإن ترضاه أو لا ترضاه، فإني شيخ سواء أردت أم لم ترد. أليست قد انفتحت أكثر من ربع قرن تنشيء الرسائل وتنشر الفصول وتذيع الكتب؟ أليس قد اختلف إليك أجيال من الشباب فقرأوا ما كتبت، وسمعوا لما قلت، وتأثروا بهذا وذاك، ففهم من ذهب مذهبك، ومنهم من ذهب مذهب فلان أو فلان من أصحابك، فمكن

شيخاً أو لا تكن، فإني أبغى كل حال، ماذا أقول؟ بل أنت جد. فلم يختلف إليك جيل واحد وإنما اختلفت إليك أجيال، ولم تخرج عليك طبقة من الكتاب، وإنما تخرجت عليك طبقات. ولست أدري ماذا يعيظك من الشيخوخة، وماذا يسوؤك منها؟ ولم تنكره أن يراك الناس كما أنت؟ بل لم تنكره أن ترى نفسك كما أنت، ولم تريد أن تطمع في غير مطمع؟ وتطلب ما لا سبيل إليه؟ فليس التصابي من الأشياء التي تحب أو يرغب فيها الرجل المحتشم، وقد عرفتك رجلاً محتشماً، فاجعل نفسك حيث أراد الله أن تكون، قال في لهجة ماكرة وصوت عابث: فإني شيخاً لذن، فقد كتبت الكتب وأذعت الرسائل، ودبجت الفصول، منذ عشرين سنة، قالت بل منذ خمس عشرة سنة. قال بل منذ عشرين. قالت لم أكن أكتب حين شبت الحرب. قال بل كنت تكتبين، وإني لأعجب أن اذكرك بعض ما كتبت قبل أن أشب الحرب. قالت فإني لم أكن قد بلغت الخامسة عشرة. قال لا أقول لك شيخاً في السن، ولو قلت ذلك لكذبني ما أرى وما اسمع. فعلا وجهها احمرار شديد، ومست يده في رفق كأنها تريد أن تضره. وهي تقول: متى تدع هذا العبث. ومضى هو في الحديث. فقال: أنت على نظرة شباك شيخاً في الأدب.

قد كتبت منذ زمن طويل، وعلمت أجيالاً مختلفة من الشباب وتخرجت عليك طبقات مختلفة من الكتاب. قالت تعال نتفق. لسنا شيخين ولا شابين، وإنما نحن شيء بين ذلك وأنت أدنى إلى الشيخوخة وأنا أدنى إلى الشباب. قال ولا هذا. فلا بد من أن نتفق على معنى الشيخوخة في الأدب، فليس يكفي أن نكون قد اصطنعنا الأدب منذ زمن طويل، وأثرنا في أجيال مختلفة من الكتاب لنكون شيوخاً، وليس من الحق أن كل أب شيخ، ولا أن كل جد شيخ. فقد نكون آباء، وقد نكون أجداداً، ولكننا على ذلك لسنا شيوخاً، إنما الشيخوخة ضعف. وما أرى إلا أن الشيخ هو الذي أخذه الضعف، وبلغ منه العجز والفتور، فاضطر إلى العقم، وحيل بينه وبين الانتاج. افترين أنا قد انتهينا إلى هذه الحال؟ إنك تكتبين في كل يوم، وإني أكتب في كل يوم. والناس يقرأون لك ويقرأون لي، والناس يعجبون بك ويرضون عن بعض ما أكتب. قالت بعض هذا التواضع، ولكنه مضى في الحديث فقال: وما زالت آمالك وآمال في الأدب أبعد من أن تحدد، وأوسع من أن تحصر، وما زلنا تم الفصل أو الكتاب. (البقية على صفحة ٤٠)